الفصل الخامس

القرآن والكتب الأخري والتفويض التشريعى للرسول

المبحث الأول

التفويض التشريعى للرسول فى القرآن الكريم

تمهيد : معني التفويض في القانون

فى القرآن الكريم يرد اسم الرسول مقترنا بالله بالنسبة للطاعة والاقتداء مما يقطع أن الله فوض رسوله بسلطة تشريعية فى نطاق أحكام القرآن.

ولكى نفهم حدود هذه السلطة نبدأ ببيان مفهوم التفويض التشريعى فى القانون. فالتفويض عملية قانونية وإدارية لها ضوابط محددة .ويكون التفويض من جهاز أعلى إلى جهاز أدنى ولا يكون فى المسائل التى يتمتع فيها الجهاز الأدنى بصلاحيات. ولذلك فإن الأعلى يفوض الأدنى فى صلاحياته المقررة له فى الدستور بشكل استثنائى لضرورة تقتضيها المصلحة العامة وكذلك ضغط الزمن، ولذلك فإن التفويض يكون محددا ولفترة محددة وفى مسائل يجوز فيها التفويض وإلا صار التفويض باطلا. ولابد أن يكون التفويض بقرار وهذا القرار لاسلطة للقضاء عليه مادام فى حدود الدستور اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بتفسير أحكام الدستور فى هذه النقاط. ومن الناحية العملية فإن التشريع اختصاص أصيل للبرلمان ويستطيع البرلمان أن يفوض رئيس السلطة التنفيذية

obeikan.com

وهو رئيس الدولة فى نفس الوقت بعدد محدود من الصلاحيات التشريعية فى فترة زمنية محددة، كما يجوز لرئيس السلطة التنفيذية أن يمارس هذا التفويض دون قرار من البرلمان استنادا إلى أحكام الدستور. ولكن لما كانت السلطة التشريعية أصلا من اختصاص البرلمان وأن رئيس السلطة التنفيذية يمارس هذا الاختصاص بشكل استثنائى، يتعين على البرلمان أن يمارس رقابته على ممارسة رئيس السلطة التنفيذية لهذا الاختصاص، ولذلك يتعين على رئيس السلطة التنفيذية أن يقدم للبرلمان إذا لم يكن منعقدا بيانا بما مارسه من الاختصاصات فى أول اجتماع للبرلمان أو فى أول دورة للبرلمان الجديد، فإما أن يرفض البرلمان أو أن يقر ممارسات رئيس السلطة التنفيذية.

التشريع هو القانون عموما سواء صدر من السلطة الأصلية وهى البرلمان أو من السلطة التنفيذية فى أى صورة ومستوى. والتشريع هو وظيفة البرلمان فى إصدار القوانين. والسلطة التشريعية هى أهم سلطات الدولة ويمارسها البرلمان ويزاحمه فيها أحيانا السلطة التنفيذية استثناءاً على الأصل. وإذا مارست السلطة التنفيذية سلطة التشريع دون نص دستورى صريح تكون قد انتهكت مبدأ الفصل بين السلطات واستقلال السلطة التشريعية عن نفوذ السلطة التنفيذية.

وللتشريع مستويات ثلاثة: المستوى الأسمى هو التشريع الدستورى وتمارسه لجنة أو هيئة تأسيسية تضع الدستور. والمستوى الثانى هو القوانين المكملة للدستور أو القوانين الدستورية ويصدرها البرلمان بأغلبية خاصة لأهميتها وتعدل بنفس الطريقة التى صدرت بها وتكون أساسية لتفسير أو تطبيق أحكام دستورية وتسد فراغا تفسيريا أو تشريعيا فى نطاق أحكام الدستور،

obeikan.com

لكن هذه القوانين الأساسية المكملة للدستور لا تعدل أحكامه، لأن تعديل الدستور يتم بأوضاع أخرى ينص عليها الدستور وتحيل فى الأغلب إلى الاستفتاء الذى كان أداة اصدار الدستور. وأما المستوى الثالث فهو التشريع العادى.

فالقوانين نوعان: نوع من عند الله وهى رسالة كل الرسل والنوع الثانى هو من فوض فيه رسول الله ﷺ أن يضع من التشريع ويلائم ما يرى وهذا تفضيل ومنحة لرسولنا الكريم وهذا رد على من ينكر السنة ويزعم الاكتفاء بالقرآن.

فمعجزة الرسول القرآن وهو الخاتم ومعجزته الأخرى أن سنته دائمة ونهائية، على عكس معجزات من قبله التى تنتهى بعد مرة أو أكثر (الشعراوى: المختار من تفسير الشعراوى للقرآن العظيم،ج٣ ص٥٨٧ – دار القاهرة ط ١ (٢٠٠٩).

أساس السلطة التشريعية للرسول ونطاقها

يجب التأكيد علي أن تفويض الرسول الكريم بالتشريع ، لايعنى الحديث عن سلطة تشريعية أوتفويض تشريعى للرسول أن القرآن يكمله بشر رسول، ولكن لما كان القرآن الكريم هو دستور المسلمين، فإن الرسول صلي الله عليه وسلم قد فوض سلطة تشريعية تؤدى وظائف السنة للقرآن. فلا يمكن الاكتفاء بالقرآن دون السنة، بل إن إسقاط السنة كما قد يحلو للبعض ممن يسمون القرآنيين يخرج أصلا من الملة لأن الشهادتين بوحدانية الله ونبوة محمد لا ينفصلان، كما نجدهما فى التشهد وفى الآذان.

والسنة كلها هى صلب التشريع النبوى المكمل للقرآن الكريم فى العبادات والمعاملات. و السبب فى تفويض الرسول أن القرآن آخر رسالة إلى الأرض،

وأن السنة هى استكمال التشريع من آخر الأنبياء وهى دليل اصطفاء.وتؤدي السنة للقرآن عددا من الوظائف الهامة.

الوظيفة الأولى أن السنة مفصلة لما أوجزه القرآن من أحكام، والثانية أن السنة مفسرة لما استغلق على البعض من أحكام القرآن والثالثة أن السنة هى مذكرة تنفيذية لأحكام القرآن والرابعة أن السنة مكملة لما يحتاج لاكتمال من أحكام والخامسة هى تطبيق أحكام القرآن تطبيقا عمليا وتجسيدها فى الحياة ونقلها من مستوى النصوص إلى التطبيق الفعلى. فقد كان الرسول قدوة وأسوة يقتدى ويتبع. ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ ولما كان الرسول بشرا أولا، ثم رسول فإن حياة الرسول وتعامله مع أحكام القرآن هى خير دليل على أن التكاليف فى مستوى الطاقة البشرية، ولذلك كان الرسول فى شقه الرسالى مشرعا للمسلمين، رغم أن بشريته لم تخرجه عن آداب النبوة. فكانت نفس الرسول تتوق إلى إنجاب ولد وهو حزن عليه بعد موته، لكنه كان يتعامل مع الرغبة فى الولد ومع وفاته بالنبل الذى كان قدوة لأتباعه. وعندما شرعت الصلاة والحج والزكاة وبقية العبادات جاءت النصوص عامة، أما السنة فقد فصلت الجانب التنفيذى والإجرائى لكل هذه الأحكام ثم جاء الفقه ليضع الصيغ النهائية المستمدة من القرآن والسنة والاجماع والقياس وسلوك السلف الصالح.

و أسانيد هذه السلطة التشريعية فى القرآن كثيرة ونصوصه قاطعة. ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾، (الحشر ٧) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ (النساء ٥٩) وقوله تعالى ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ**

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء ٦٥). وعندما كلف الرسول بالبلاغ حدده النص القرآنى تحديدا قاطعا بقوله تعالى﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾**. (الأحزاب٤٥،٤٦) وقد شدد القرآن على وظيفة البلاغ لكل الأنبياء والرسل ولم يطلب منهم الهداية لقوله تعالى ﴿ **لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ**﴾. (البقرة ٢٧٢) وقوله تعالى ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** (يونس ٩٩) ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ**﴾(هود ١١٨).

فالارتباط الوثيق بين الله ونبيه واختياره سبحانه لأنبياء الله ورسله ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ**﴾ (الأنعام ١٢٤) يجعل الرسول متحدثا ومبلغا عن الله، والله يراقبه ومتأكد من رسله، ولذلك أنب الله الذين تقولوا على عيسى عندما قال ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾ (المائدة ١١٦).

هذه الأسس تؤكد التفويض الإلهى لرسوله بالتشريع فى حدود القرآن ولذلك فالسلطة التشريعية للرسول هى سلطة تكميلية لاغنى عنها لإيضاح النص القرآنى وتجسيده فى الواقع وبيان الفاصل بين ما هو بشرى وما هو وحى من الله.

ولكن القرآن يخبرنا أن السنة والقرآن من مصدر إلهى واحد بقوله تعالى ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ (النجم ٣،٤) فالنص يتجه مباشرة إلى القرآن المنزل والذى كلف الرسول بإبلاغه بنصه. ولكن إذا وسعنا الدائرة لمجرد التحليل والفهم، وجدنا أن الرسول ينطق بثلاثة، القرآن المنزل الذى أوحى الله به إلى الرسول عبر الروح الأمين جبريل وهو الذى تعهد الله سبحانه بحفظه مبنى ومعنى إلى قيام الساعة ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر ٩) فهل تعهد الله بحفظ المصدرين الآخرين مما نطق به الرسول الكريم الحديث القدسى والحديث النبوى، وهو أحد مصادر السنة الثلاثة : القولية والفعلية والإقرارية. من الناحية الحرفية، كان التعهد بالحفظ للقرآن وحده دون الأحاديث القدسية والنبوية، ولكن كل ما نطق به الرسول هو وحى يوحى، وهذه النتيجة تتسق مع كون الرسول أميا بينما العلم فى الأحاديث لا تتناسب مطلقا مع حالة الأمية التى تعنى انقطاع القدرة على تحصيل العلم عن طريق القراءة والكتابة، فهو علم لدنى لاعلاقة له بهذه الطريقة فى التحصيل. ولما كانت الأمية حالة خاصة بالرسول وهى تتصل بصلب العقيدة ومصداقية النص القرآنى، فقد خصص الله موضعا خاصا بالتعلم تعظيما له فى تحصيل العلم كما أن أول مانزل على محمد عليه الصلاة والسلام هو الأمر بالقراءة وهو يعنى ثلاثة أمور بليغة : الأمر الأول هو التأكيد باعتراف الرسول منذ بداية البعثة أنه أمى والأمر الثانى التدليل بأن القراءة هى الطريقة العادية للتحصيل . الأمر الثالث أن الأمى لا يعلم شيئا بسبب أميته، فإذا كان النبى مدينة العلم رغم أميته فهو من عند الله وهذا العلم اللدنى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ وقوله ﴿**فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ**﴾

أى أن الله جعل العلم (دنيويا أو لدنيا) معيار التمايز بين المخلوقات وكان هذا العلم اللدنى الذى منحه الله لآدم أوراق تميزه وترشيحه لكى يكون

أجدر من الملائكة بالخلافة فى الأرض. ثم وجه القرآن إلى أن الإنسان الذى كلف بالخلافة فى الأرض هو نفسه الذى قبل الأمانة التى لم تعرض عليه لضعفه، وأبت المخلوقات الأقوى منه أن تحملها وأشفقت على نفسها منها، فكان الإنسان ظلوما لنفسه وجهولا بأبعاد وعظم مهمته. هذا الاختيار كان سببا فى أن ميز الله الإنسان عن المخلوقات التى اختارت عبادته عبادة تسخير، فخضع الإنسان العاقل المختار الحر للمساءلة دون سائر المخلوقات، ومن هنا كانت الجنة والنار مادام الإنسان خلق خطاءا وأنه هو الذى يختار الإيمان أو الكفر. ثم أن الله احترم إرادة الإنسان فى الإيمان والكفر كما احترم إرادته فى التصرف فى ماله واحترم ذمته المالية، وأوضح القرآن أن الله يحب أن يقبل العبد عليه بإرادته وليس رغما عنه مادام الإيمان اختيارا وليس قهرا، بل لا يمكن أن يكون قهرا، وأن يتقرب اليه بأكثر الأشياء قربا الي نفسه وأكثرها تعلقا بها من جانب الانسان وهو المال ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾

الجدل حول أمية الرسول وحول موقع السنة.

فالقرآن الكريم هو التشريع الأسمى وإسهامات الرسول الكريم هى التشريع المكمل. ونلقى بعد ذلك الضوء على جانبين هامين فى هذا السياق.

الجانب الأول هو الأمية، ولذلك لا يليق ولايخدم العقيدة أو الرسول إنكار هذه الأمية، لأن الإنكار على سبيل الغيرة على نبى الأمة يضرب صلب العقيدة لأنه يعرض القرآن للمزاعم التى رددها المشككون منذ نزول القرآن.

الجانب الثانى هو المتعلق بفريق إنكار السنة وهم الذين أطلقوا على أنفسهم القرآنيون، ولسنا بحاجة بعد لهذه الشروح فى علاقة السنة بالقرآن وعلاقة الله برسوله وتأكيد الرسول على أنه ترك فى المسلمين بعد موته ما ان اتبعوه لن يضلوا أبدا كتاب الله وسنة رسول الله.

لماذا هذه السلطة لمحمد ﷺ دون سابقيه؟

لوحظ أن القرآن الكريم قد استخدم فى خطابه إلى الرسول كل الصور المتصورة، فخاطبه باسمه محمد ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ**﴾ (آل عمران ١٤٤) ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ (الفتح ٢٩) وخصص سورة ضمن سور القرآن باسم محمد ولم يشبهه فى ذلك إلا يوسف، أما موسى فرغم كثرة الإشارات إلى موسى وبنى إسرائيل بصورة لافتة، فى أكثر من ثمانى سور، إلا أنه لم يخصص باسم موسى سورة من هذه السور.

وتحدث الرسول عن نفسه فقال "أدبنى ربى فأحسن تأديبى" (الحديث)، وامتدح الله رسوله بقوله ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم ٤) وخاطبه بالنبى عدة مرات ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ**﴾ (الأحزاب ٥٩) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ (الأحزاب ٤٦).

وخاطبه سبحانه بالرسول ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ (المائدة ٦٧) ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾ (الحشرالآية ٧) وتهكم عليه الكفار بأن نادوه ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ**﴾ وقوله تعالى ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ (الآحزاب ٢١).

ولما كان الرسول هو آخر الأنبياء والمرسلين وكان القرآن هو آخر كتب السماء إلى الأرض مكملا وموضحا وشارحا وشاملا وخاتما لكل الشرائع السابقة التى كانت جزئية فى المخاطبين وفى الزمن وفى الأحكام فكان القرآن آخر رسالة السماء إلى الأرض، مصدقا لما جاء فى الكتب السابقة ولذلك لم يفرط فيه من شئ لأنه لاكتاب بعده إلى قيام الساعة، فقد فوض الرسول بالتشريع المكمل وفق الأصول الكلية والأعمدة الرئيسية للقرآن.

المبحث الثانى

القرآن والشرائع الأخرى

قال تعالى ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ (آل عمران ٨٥). وورد فى القرآن لفظ الإسلام فى قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ﴾ (المائدة ٣). وورد لفظ المسلمين والمؤمنين، وتكررت الإشارات الي الأنبياء جميعا بأنهم "مسلمون" ﴿**وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ ولكن خطاب الله لعباده لم يكن للمسلمين وإنما كان للمؤمنين. وميز القرآن بين الإسلام والإيمان ﴿**قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ**﴾ " ﴿**قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ**﴾. كما لاحظنا أن القرآن استخدم لفظ المسيح إشارة إلى عيسي بن مريم واستخدم لفظ النصرانية إشارة إلى اتباع عيسى ولكنه استخدم لفظ اليهودية و(النصرانية) ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا**﴾ واستخدم "اليهود" ولم يستخدم اليهودية ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ**﴾. ولكن القرآن أورد الكتب السماوية الثلاثة مرتبة ترتيبا تاريخيا في موضعين علي الأقل مثل قوله تعالي ﴿**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ**﴾ ، ولم يقل فى اليهودية والمسيحية والإسلام.

نخلص من هذه الإشارات إلى الملاحظات الآتية:

أولا: أن المسلم هو الذى يؤمن بكل رسالات السماء، ولذلك وبهذا المعنى كان الأنبياء جميعا مسلمين، بدءا من آدم ، ونزلوا برسالة واحدة أعقبتها

رسالات وحتى الأنبياء كانوا رسل الله إلى الناس برسالة جوهرها وحدانية الله والبعث والحساب.

ثانيا: المسلم هو آخر أتباع الرسل وهم أتباع محمد لأنهم يؤمنون بجميع الرسل والرسالات السابقة. وقد كرم الله محمدا بأن حمله بمجمل الرسالات وبآخر كتاب شامل لما قبله وهو القرآن الكريم، ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ**﴾ وتكفل بحفظه من كل ما ينال من مصداقيته وروايته وإخباره عن الرسل والرسالات والأقوام المختلفة.

ثالثاً: الدين عند الله هو مجمل هذه الرسالات وهو الإسلام ويستوى أن يكون مجمل الرسالات أو آخرها، لأن آخرها يؤمن بكل الرسالات السابقة عليه. وأما الكتب المقدسة فهى فى العقيدة حزمة ومرجعية لهذا الدين الواحد، ولذلك جاء القرآن نصا نهائيا وتبيانا لكل شئ ثم جاء محمد ﷺ لكى يرد على كل التساؤلات القديمة والمستجدة ولكى يجسد أحكام الدين الواحد فى كل الكتب، لأن محمدا والقرآن آخر اتصال بين السماء والأرض إلى يوم الدين. فتكون اليهودية شريعة وليست دينا، وتكون المسيحية شريعة أيضا، ولايصح أن نقول لكل منها دين، كما لا يجوز الحديث عن مقارنة الأديان، وإن صح مقارنة الأحكام والتكليفات فى الشرائع السابقة بما جاء فى القرآن فى نسخة الدين الختامية، فإنه لايصح مقارنة هذه الأحكام بالإسلام، لأن الإسلام هو هذه الشرائع مضافا إليها ما استجد فى عهد محمد ﷺ وما ارتضاه الله من تخفيف في العبادات وتوضيحا للتطرات وتصحيحا لما انحرف اليه أهل الكتاب قبل نزول القرآن من مثل الاشارة الي أن كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الاماحرم اسرائيل علي نفسه، فالقرآن هو كتاب الإسلام الجامع وليس اسلاما

جزئيا تصح مقارنته بغيره من الشرائع، ومن آمن بمحمد والقرآن، آمن بكل الشرائع السابقة ورسلها، فصار مسلما.

فهناك إذن فرق بين إسلام الأنبياء الذين يحملون رسالة الله الجامعة وينزلون بما تيسر منها على أقوامهم وجوهرها وجود الله الواحد الأحد رب الدنيا والآخرة والقدر والحساب، وبين إسلام الذى أدرك محمدا فآمن به ومن قبله. أما من آمن بموسى وعيسى ومات قبل محمد فقد مات على الجزء المخاطب به من هذا الدين وخاصة جوهره، ولذلك أطلق عليها الشرائع التوحيدية، وأما من وقف فى إيمانه عند موسى أو عيسى وأدرك محمدا فلم يؤمن ببقية الدين، فهم أهل الكتاب الذين حث الله محمدا على مراجعتهم وأول مسائل المراجعة ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ۚ﴾ وهذا هو جوهر الشرائع المكونة للإسلام بعد البعثة. فالأنبياء والرسل الذين فى فترات مختلفة قبل محمد كانوا يبشرون بمجمل الدين وهو محمد الإسلام وكانوا مأمورين فى كتبهم بالإيمان بمن يلى من الرسل.أما الأنبياء والرسل فقد أخذ الله عليهم ميثاقا ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ (آل عمران ٨١)

فالأصل أن الناس أمة واحدة والإنسان واحد ولما جاءهم النبيون اختلفوا، وصار أتباع الرسل ينزلون الرسالات فى إطار قواعد الصراع وهذا ماحدث بين اليهود وبنى إسرائيل وبين محمد على أساس أن كل شريعة تنطوى على سيادة بين الناس فى الدنيا علما بأن السيادة لكل من دخل فيها وليست حكرا على من نزلت على قومه، وكان ذلك ظاهرا عندما هاجر الرسول إلى المدينة المنورة ، حين ناصبه اليهود العداء والضغينة لأنه أحبط سيادتهم وتميزهم.

ويترتب على أن الإسلام هو جماع الشرائع السابقة مضافا إليها ما جاء فى القرآن مكملا ومعدلا، مع ثبات القواعد الأخلاقية النتائج الآتية:

النتيجة الأولى هى أن القرأن كتاب وكل من آمن بكل الرسالات والرسل فى القرآن مسلمون ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ (الحج ٧٨) ووضع القرآن قواعد التعامل بين هؤلاء المسلمين وبين من قنع برسالته ورسوله ووقف عنده ولم يعترف بمحمد، غير أن هؤلاء ينبغى عليهم إن كانوا يؤمنون بصلب رسالة موسى وعيسى أن يؤمنوا بالقرآن وبما أشارت إليه كتبهم الصحيحة لأن القرآن الجامع سوف ينزل على آخر نبى وهو محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وأخبرنا القران أنه موجود في كتبهم قبل تحريفها وأنهم يعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم.

النتيجة الثانية: مادام الدين بشرائعه وكتبه المختلفة قد اكتمل بالقرآن والسنة فهما باقيان إلى قيام الساعة، ومن يؤمن بالله دون أن يؤمن بمحمد فإنه حفظ جوهر الدين دون أن يكتمل إيمانه مادام كتابه على ما أخبرنا القرآن يحثه على الاعتراف بمحمد. ومعنى ذلك أن الإسلام رسالة خالدة وهى عالمية وليس هناك إضافة عليها ولكن على أتباعها مداومة إنزال ما جاء فيها على ما تكشف عنه الحوادث من مسائل وقضايا.

النتيجة الثالثة: هى أنه مادام القرآن لمن سبق ومن لحق فى جميع العصور وهو كلام الله وفرقانه وأحكامه إلى الناس إلى قيام الساعة، فقد ظل القرآن دون إرسال أنبياء مادام القرآن نزل على محمد وأتم الله نزوله قبل لحاقه بالرفيق الأعلى، ولكن الرسول ترك سنته إلى جانب القرآن مكملا ومفسرا وموضحا وشارحا ومفصلا، وكلاهما القرآن والسنة نبراس الناس إلى يوم الدين،

obeikan.com

فمن أخذ بالقرآن وأغفل السنة فقد خرج من الملة ولاسبيل إلى الاجتهاد فى هذه الركائز الأساسية فى الدين.

النتيجة الرابعة: هى أنه مادامت السنة تجاور القرآن إلى يوم الدين، والأحكام الواردة فيهما هى قانون السماء للناس، فقد ترك تفسيرهما لحيوية العقول وإسهاماتها . والثابت أن الرسول لم يقدم تفسيرا مانعا للقرآن حتى لا يجمد النصوص القرآنية ويحبسها عند لحظة معينة، كما أن إضاءات الرسول لأحكام القرآن هدفها مساعدة العقول المتجددة خاصة فى مسائل المعاملات، أما مسائل العقائد فإن الاجتهاد فيها لابد أن يراعى الدقة فى النص القرآنى ومنطق السنة المتصلة بالمسألة محل الاجتهاد.

النتيجة الخامسة: هى أن الله أولى عناية خاصة بمحمد فى القرآن وحفل القرآن بمظاهر هذا الاهتمام ويكفى أن الله اختاره ليتمم موكب الرسل والأنبياء وليتمم مكارم الأخلاق وليكون القرآن هو معجزة محمد، وهو الكتاب الجامع والخاتم للرسالات والرسل.

وتحفل آيات الذكر بالإشارات المتصلة بمحمد فهو الرسول والنبي ومحمد (أشار أعداؤه تهكما إليه : يا أيها الذي نزل عليه الذكر). وخصصت له سورة محمد بسبب وضعه عند ربه، ولأن محمدا كان يطبق القرآن ومن ثم كان القرآن يتابع أحكامه ويصحح إن اجتهد قبل نزول الوحى، ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ ﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ**﴾ حيث صحح القرآن موقف الرسول من قضية الأسري.كما أن الرسول قاد المعارك ضد الكفار فى عدة غزوات وكان المسلمون حينذاك يطالبون الرسول بصدق ما وعدوا به فى أوقات الشدة. (عندما زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنونا وسألوا الرسول متي وعد الله.)

obeikan.com

المبحث الثالث

التفسير الجيودينى للرسالات والرسل

للعالم خريطة لتوزيع أتباع الأديان السماوية والمذاهب الفلسفية التى وضعها أتباعها فى مصاف الرسل والديانات، فكل هذه المذاهب تحض على ما تحض عليه الأديان السماوية من فضائل وسلوكيات هدفها النهائى أن يكون الإنسان صالحا لإعمار الأرض. والفارق بين الأديان السماوية أو بمعنى أصح الشرائع السماوية وهذه المذاهب هو أن الله فى الأديان هو الخالق والمعبود وهو الرزاق وهو الحسيب وأن الخلق كله من صنعه وأن الإنسان أضعف مخلوقاته ولذلك تكرم عليه بكل نعمة فى الدنيا وحدد طريقة الحساب يوم الحساب كما كرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا رغم أن الإنسان كفور وخصيم للخالق، ومن باب أولى يكون فى صراع مع أخيه الإنسان مالم تلجمه الفضائل والشرائع. والله الخالق المعبود هو الذى أرسل الرسل والرسالات، وهو سبحانه الذى يهدى إلى سواء السبيل. فالله بملائكته ورسله وكتبه، يتواصل مع الإنسان لهدايته. ولما كان الإنسان قد اختار أن يكون حرا فى الإيمان والكفر فقد قبل كذلك أن يكون مسؤولا وأن يحاسب. ولذلك فإن الذين آمنوا بالأنبياء والرسل والرسالات يوم نزلت الرسالات إلى يومنا أقل كثيرا ممن اختاروا ألا يؤمنوا بالله ولايعترفون بوجود الله، وهذه المساحة الكبيرة التى تزيد على نصف سكان الأرض ظهر فيها فلاسفة مصلحون يهدون الناس إلى الخير وكانوا قدوة فى ذلك، على النحو الذى شرحه العقاد فى عبقرية كونفوشيوص. وقد انقسم العالم دينيا على هذا النحو الذى صورته خريطة عام ٢٠٠٥ للأمم المتحدة تطبيقا

obeikan.com

لحرية الاختيار بين الإيمان والكفر، فالذين اختاروا الإيمان هم المسلمون والمسيحيون (الذين قالوا إنا نصارى) وإن كان القرآن قد اعتبر التثليث كفرا وليس توحيدا ولكننا نعتد فى الإحصاء بالتسمية وليس المعتقد والممارسة، ثم اليهود. أما الذين اختاروا الكفر بالله فهم من رفض الإيمان بوجوده واتبعوا الفلاسفة المصلحين مثل عشرات العقائد والفلسفات السائدة فى الهند والصين واليابان وجنوب شرق آسيا خارج الدول الإسلامية والمسيحية، ونضم إليهم اللادينيين وكلها مسموح بها فى علاقة الإنسان المطلقة فى أن يختار من يعبده حتى لو لم يكن هو خالقه أو يفترض أنه كذلك كما يقولون. ولذلك انتشر الإسلام والمسيحية فى هذه المساحات الواسعة وتعايش الموحدون مع غير الموحدين فى إطار ثقافة التعايش السلمى فى وطن واحد، حتى عصفت التحولات والأحداث السياسية بهذا التعايش وأهمها تدخل السلطات الوطنية وإباحة حرية العقيدة لطائفة وإنكارها على طائفة أخرى. فالمسلمون فى هذه البلاد أقليات وهم بحاجة إلى حرية لممارسة عقيدتهم، كما أن هذه الأقليات تأثرت بالتيارات الدينية والسياسية فى الدول الإسلامية، فأصبحت هذه الأقليات إرهابية فى نظر الغالبية من سكان هذه الدول، بل وصل الأمر برجال الدين البوذى أن تقدموا صفوف التطرف ضد مسلمى بورما، وحدث نفس الشئ مع معتقدات أخرى كالهندوس فى الهند وغيرها.

فالخريطة الدينية وتوزيع الموحدين وغيرهم هو أمر طبيعى ودليل على أن المشكلة بين الفريقين ليس صراعا دينيا وإنما هو صراع سياسى واجتماعى، مادام الله قد خير الناس بين الإيمان به أو إنكار وجوده، وهو أمر لا يضير الخالق فى شئ.

من ناحية أخرى، لاشك أن الأرضية الاجتماعية والثقافية تلعب دورا أساسيا فى تقبل الناس دينا معينا أو عقيدة وفلسفة معينة . وفى النهاية ظهر فريق يطالب بوحدة العرق البشرى بأن الإيمان بهذا الإنسان هو الدين ، وفى هذا أيضا إنكار للخالق ويقوم منطق هذا الفريق على أنه إذا كان الموقف من الله هو الذى قسم البشر، فإن إخراج الله من المعادلة والتركيز على مصلحة الإنسان وسعادته هو القاسم المشترك، مادامت الأديان والشرائع والمعتقدات والفلسفات تهدف فى النهاية إلى تحقيق الانسجام والسعادة بين الناس فى صحبة هذه الحياة.

التركيز المكانى والتوزيع الزمانى للشرائع والرسل:

من الواضح أن رحلة الإنسان على الأرض منذ نزول آدم إليها مع زوجه قد بدأت ومعها كافة التكليفات اللازمة لهدايته فى معيشته الجديدة، فكان قتل قابيل لهابيل أول ظهور وإثبات لقوله تعالى ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾، بل إن القرآن بلغ فى دقته فى تصوير هذه الحقيقة أن أكد ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾ وبذلك وضع قواعد نظرية الصراع والتدافع، وهى نظرية توازن القوى ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾ فالتدافع يقدره الله حتى يحفظ التوازن ولا يتركه لحرية القوى المتدافعة. وإذا كان القرآن قد أخبرنا أن الرسل والأنبياء من آدم إلى محمد ركب متكامل نزلوا لهداية الإنسان وتذكيره بسنن الله فى الأرض، فقد نزلوا جميعا فى رقعة واحدة هى الممتدة بين إيران ومصر مرورا بالعراق وفلسطين والجزيرة العربية. أما الرسالات السماوية الثلاثة والكتب المقدسة جميعا فقد نزلت اثنتان من الرسالات وجميع الكتب السابقة على القرأن الكريم على بنى إسرائيل، فقد بعث موسى وعيسى لبنى إسرائيل، فبعث موسى فى

مصر لكى يخلص بنى إسرائيل فى مصر ويرافقهم إلى فلسطين ثم ولد عيسى فى بيت لحم فى فلسطين وبعث فيها إلى قومه من بنى إسرائيل بعد أن استقروا فى فلسطين إلى رسول الله مصدقا إليكم (يابنى إسرائيل) فلما ظهر محمد فى الجزيرة وبعث فيها بالقرآن الكريم كان اليهود والمسيحيون من بنى إسرائيل يعلمون القصة كلها، ولكن بنى إسرائيل تمسكوا برسالة موسى ومن بعده من أنبياء بنى إسرائيل وصدوا عيسى وأوشكوا أن يفتكوا به، ثم أنكر اليهود والنصارى رسالة محمد رغم أنهم قرأوا عنها وبشروا بها فى كتبهم الصحيحة قبل أن يحرفوها كما أخبرنا القرآن الكريم .

كما أخبرنا القرآن أن هؤلاء الذين يدعون أنهم أنصار موسى وعيسى هم أشد الناس عداوة لدعوة محمد، وأن أهل الكتاب هم الذين بدأوا الطغينة ضد محمد ولذلك جاءه التوجيه القرآنى ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ وهذا هو جوهر رسالة الإسلام التى بدأت بآدم وانتهت بمحمد. فصار أعداء الدعوة ابتداءا هم اليهود والمسيحيون الذين لم يعرفوا بها بل وحاربوها، وكان الكفار والمشركون هم الفريق الثانى فى عداد أعداء الدعوة.

ولذلك فإن الصراع بين أتباع الشرائع الثلاثة صار من خصائص الصراعات فى هذه المنطقة رغم زوال الأسباب التى منعت الأجيال الأولى من اليهود والمسيحيين من الاعتراف بدعوة محمد، بل وكاد يهدد المدينة المنورة للدعوة وصاحبها حتى بعد أن أكد مبدأ المواطنة بصرف النظر عن عقيدة سكان المدينة، فالمدينة لكل ساكينها وليس للفريق الذى ينتمى إليه رئيس دولة المدينة وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وهى أقدم وثيقة فى التاريخ تقر مبدأ

المواطنة فى أنصع معانيها وعلى أساسها احتكم الرسول ويهود المدينة إلى أحد اليهود فصدر حكم التحكيم مؤيدا بنص قرآنى ليؤكد سلامة هذا الحكم الذى صدر فيهم من أحدهم ليعكس كلمة الله فى الموضوع.

لماذا تركزت الرسالات والرسل فى منطقة واحدة؟

لايزال هذا السؤال مفتوحا للتأمل، والاجتهاد، فقد يكون السبب أن الرسل بعثوا فى أقوام شديدة المراس، فإذا آمنت انتشر الدين خارج المنطقة، وقد يكون السبب أن الأقوام التى بعثت فيها الرسل منهم من آمن، ومن الأقوام من أنكر بالكلية، فحق عليها الهلاك، حيث تنوعت صور الهلاك لهذه الأقوام فى القرآن الكريم، خاصة من تحدوا الرسل واستعجلوا فى إثبات أن ماجاءوا به حق من ربهم، وترك الزمن بقايا وعلامات على صور الفناء حتى يكون عبرة لمن خلفهم من الأقوام، ولذلك حثنا القرآن على التنقل والتأمل والتنقيب عن هذه الآثار الباقية الشاهد على صدق رواية الله فيهم ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (الأنعام ١١)

ويجوز أن يكون السبب فى أن الرسالات تركزت فى هذه المنطقة، لأن الفجور بلغ مبلغا لا تستقيم معه الحياة، فتدخلت السماء برسلها ورسالاتها. وأخيرا قد نلتمس السبب فى تقدير الله أن بالمنطقة خيرا تستنبته هذه الرسالات فيكفر البعض ثم يؤمن الأغلبية. فقوله سبحانه ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**ۗ﴾ قد تعنى أنه يختار الرسل ويختار المرسل إليهم، فالرسالة مع الرسول لابد أن تكتمل بابلاغ الرسول قومه بهذه الرسالة.

ولكن إذا كانت الشرائع السابقة نزلت لأقوام بذاتها وهم بنو إسرائيل فإن الإسلام والقرآن نزل على العرب وهم أهل جاهلية تجافى روح الحضارة، فكرمهم بهذه الرسالة، وسادوا عندما أدركوا هذا المعنى وبأنها رسالة إلى كل شعب على امتداد المعمورة وأنها جماع الشرائع السابقة إكمالا وإتقانا، وكلف نبى الرحمة بتطبيقها وهو البشر الرسول حتى يضيف باجتهاداته وتجسيده لأحكام القرآن التعبدية والأخلاقية سنة مطهرة لصيقة الصلة بالقرآن وتشكل الطبقة الثانية الأساسية فى مصادر الالتزام والأخلاق. فكان النبى هو خاتم موكب الرسل والأنبياء، ويكون القرآن حجة على الجميع يوم القيامة.

جنسية الرسل والرسالات:

رسل الله وأنبياؤه تم اختيارهم بشرا ومن أقوامهم ولذلك كانت الرسالات محلية وخاصة بهذه الأقوام، ولكنها رسالة عامة وخطاب من السماء إلى الأرض، وكانت التكليفات متفاوتة وطقوس العبادات مختلفة ولكن القيم والفضائل فيها جميعا مطلقة من الخالق إلى المخلوق، ولذلك لاتناقض بينها ولاصراع بين نصوصها، وإنما نشأت المشكلة من أتباع هذه الشرائع، فجاء القرآن شاملا وموضحا لما كان ومنبئا بمستقبل ما سيكون، لأن بالقرآن تواصلت صلة السماء بالأرض دون رسل وهو ما جلاه الرسول الأمين بقوله: لقد تركت فيكم ما إن اتبعتموه لن تضلوا بعدى أبدا: "كتاب الله وسنتى" كما ترك أتباع مدرسة النبوة من أصحابه الذين ساهموا فى ترسيخ هذا الدين فلم يتركوا فى أصوله غامضا أو ملتبسا ولكنهم أبوا أن يغلقوا باب الاجتهاد على من خلفهم مادام الكتاب سيظل هاديا للبشر إلى قيام الساعة.

وإذا كان كل بنى ظهر فى قومه يخاطبهم بلغتهم ويبلغهم رسالة ربه وهم جميعا مسلمون، فليس معنى ذلك أن لكل نبى جنسية، فلم تكن معظم ماهو معروف اليوم دولا سوى الدول الأساسية مثل مصر والعراق أما الجزيرة العربية فلم تكن وحدة سياسية وقانونية وإنما فضاء جغرافى وسكانى وثقافى ضمن الأقاليم الثقافية فى العالم القديم.

ويصح لنا أن نميز بين جنسية النبى أو الرسول عند البعثة وبين رسالته التي تتجاوز حدود الرقعة الجغرافية، ذلك أن القيم التى جاء بها كافة الأنبياء والرسل هى قيم واحدة، وإنما جاءوا جميعا لتذكير أجيال البشرية بوحدانية الخالق وحرية المخلوق وحسابه عما يفعل فى دنياه، وأن هذه الحياة هى مدخل لآخرة أبدية يحاسب فيها الإنسان عما فعله فى دنياه. أما الشرائع فقد بلورت هذه القيم كتابة وحددت أقسام العبادات والمعاملات، فى علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالخالق. فكانت قافلة الأنبياء ومنظومة الشرائع حجة على الإنسان يوم القيامة، حيث قضت عدالة الخالق ألا يمضى عذابه فى أى إنسان إلا بعد أن يبعث فى قومه نبيا، بشيرا نذيرا ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ ، ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾ وغير ذلك من الايات الدالة علي هذه الحقيقة.

ومادامت دعوة الرسل والأنبياء عامة وإن خرجوا من أقوام وأقاليم معينة فإنه لا يصح أن ننسب هؤلاء الرسل إلى دول بذاتها هم ودعوتهم، وإلاتناقض مطلق الدعوة مع عنصرية الرسول، فهم رسل الله لا يختارهم حسب التوزيع الجغرافى، ولا لكى يمنوا بأصول ميلادهم ومحلها على غيرهم. وقد بلغ تعظيم أحد الدعاة الأفاضل من بلاد الحرمين لمصر أن أعتبر موسى مصريا. صحيح أن موسى ولد فى مصر من أقلية هى بنو إسرائيل، ولكن رسالته كانت لفرعون

مصر يدعوه إلى عبادة الله الواحد الأحد، وكانت قصة موسى التى توزعت على الكثير من سور القرآن كاشفة عن الكثير من الدروس. ثم كانت رسالته بعد الخروج إلى بنى إسرائيل الذين استعصوا على العلاج، فكانت كثرة الرسل والأنبياء وكثرة الكتب المقدسة دليلا ساطعا على صبر الله عليهم وعلى استعصاء دائهم ويبدو أن الله أراد إصلاحهم، حتى لايضلوا البشرية بعد ذلك، ولكنهم أبوا فعذبهم الله مع شعب مصر حينذاك لكنهم صدقوا فرعون إلاله وكذبوا دعوة موسى إلى الله الواحد القهار، وسلط عليهم ما يستحقون من صور العذاب.

من ناحية أخرى، فلاشك أن الله قد كرم مصر إذ جعل لها بكل الرسالات السماوية الثلاثة سبباً ونسبا. فولد فيها موسى وفيها بعث وفيها دعا لرسالته ومنها خرج إلى فلسطين بعد أن آمن الفوج الأول من المصريين قبل بنى إسرائيل وهم السحرة الذين استنجد بهم فرعون لهزيمة "مكر" موسى الذى اعتبره فرعون عاقا وخائناً. فهو عاق لأنه تربى فى بيت فرعون وكان ابنا له بالتبنى فمن الله عليه بهذه النعمة ونجاه من بطش فرعون بفضل امرأته المؤمنة "قرة عين لى ولك".

ثم من عليه بأن استجاب لطلبه عندما كلف بالبعثة أن يتخذ من أخيه هارون سندا ومستشارا وهى حالة نادرة أن يصبح المساعد نبيا ورسولا بنص القرآن ثم توالت عليه النعم منذ نجاه الله وهو صغير ثم نجاه بعد قتله أحد المصريين ثم استقر به الحال عند شعيب نبى الله وأن يتزوج أبنته بعد مكثه لديه عشرة أعوام تهيئة له على مواجهة مشاق الرسالة. وكان لمصر صلة بعيسى الذى هاجر بأسرته إليها فراراً من اضطهاد اليهود والرومان ثم تزوج محمد نبى الأمة من أمرأة قبطية من مصر أرسلها له المقوقس كبير الأقباط فى

ذلك الوقت فإذا كان الخير منعقدا بمصر بنص القرآن وسياق الرسالات فأنه على العكس لا يجوز لبنى إسرائيل أن تدل على المصريين بأن اثنين من أنبياء بنى إسرائيل ظهرا فى مصر هما يوسف وموسي.

فكان ذلك تكريما لمصر ولكنه ليس تكريما لبنى إسرائيل، لأن الله هو الذى اختار هؤلاء الأنبياء وهو الذى رسم لهم طريقهم ومصر هى المسرح الكبير للهداية، ثم أن يوسف وموسى تربيا فى بيت الملك أرقى بيوت مصر وأتاحت سماحة مصر ليوسف أن يستفيد مما علمه الله من تأويل الأحاديث، فلابد أن نفصل الأنبياء عن سياق أحوالهم وأماكن ميلادهم، حتى لا تدل مصر على اليهود بأنها ربت موسى حتى أتاه الله علما وحكما، ولا يجوز لإسرائيل التى يتناقض وجودها مع رسالة اليهودية بأنها هى التى أنقذت مصر من المجاعة بيوسف، وأنقذتها من الضلال بموسى. ولاندرى هل تمسك المصريون بالفرعون وألوهيته من منطق الانحياز للوطن الذى كان حاضرا فى خطاب فرعون آنذاك ضد غريب من أقلية مضطهدة فى مصر أم لأن صورة الإله قد صدقها سلوك الفرعون الذى كانت أولى صفاته العدل، أم لأن المصريين ألفوا – كما ألفت الأقوام الأخرى دين آبائهم وأجدادهم خاصة إذا ارتبط هذا الدين بالشرعية السياسية للحكم، فكان معنى تحدى ألوهية فرعون أن تسقط شرعيته السياسية عند شعبه، لأنه فى نظرهم ملك إله، خلافا للنمرود فى العراق الذى كان ملكا يرعى عبادة الأصنام التى حطمها إبراهيم، فكان الخروج على ملة هذا القوم من عبادة الأصنام ليس طعنا فى شرعية الحاكم، ولكنه كان تحديا لعقيدة شعبه وهو فى المقدمة منهم.

فإذا صح أن موسى كان مصريا، كما كان يوسف، وإن تحدرا من بنى إسرائيل، فما هى جنسية إبراهيم ولوط وعيسى ونوح وغيرهم الذين بعثوا فى أقوام نشأت واستقرت قبل أن تعرف الدولة. فقد كان العراق يعرف بحضارة ما بين النهرين: دجلة والفرات، أو بلاد الرافدين، ولم يظهر مصطلح العراق إلا فى العصر الحديث. وحتى لو نسبنا الأنبياء إلى جنسيات، فما هى جنسية محمد؟ فكأن الله أراد أن يظهر أنه إذا كان النبى انحصرت رسالته فى قومه فإن رسالة محمد هي للبشرية كلها وإن انطلقت من الفضاء الجغرافى المسمى بالجزيرة العربية.

ولكن على العكس من ذلك، فإن الأماكن المقدسة عند هؤلاء الرسل تتبع الدول التى نشأت بعد ذلك، فمكة والمدينة تقع فى المملكة العربية السعودية، وبيت لحم تقع فى فلسطين فى الضفة الغربية، وسيناء مهبط الوحى الموسوى تقع فى مصر. فمن حق اليهود أن يزوروا تراث موسى ومن حق المسلمين أن يزوروا الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة عمرة وحجا ومن حق المسيحيين زيارة بيت لحم. ومادامت هذه الدول هى التى تراعى هذه الأماكن باعتبارها جزءا من إقليمها، فلايجوز المطالبة بتدويلها على سبيل الكيد السياسى، كما لا يجوز لسلطات الدول التى تقع فيها هذه المقدسات أن تدخل الاعتبار السياسى والكيد السياسى فى مسائل التأشيرات ومعاملة كل ضيوف هذه الأماكن. ولا ينطبق ما سبق على الفاتيكان، لأن الفاتيكان أراضى إيطالية خالصة منذ أقدم العصور، وقيام الفاتيكان وتحديد وضعه ووضع زواره قد اتفق عليه بالتفصيل بين الحكومة الإيطالية والبابا فى اتفاقية اللاتران ١٩٢٩ وهى التى قننت العرف القديم فى اتفاق صريح عندما خشى الفاتيكان من تصاعد فاشية موسولينى حينذاك.

وترتيبا على ذلك فإن تعنت إيطاليا مع زوار الفاتيكان لا يعطيهم الحق بالمطالبة بتدويل الفاتيكان، فليس فى الفاتيكان أماكن مقدسة وإنما تقيم به طبقة القيادة الدينية للكاثوليك وتدير شبكة واسعة من الكنائس على امتداد العالم بأسره، فزيارة الفاتيكان بالنسبة للمسيحيين زيارة سياحية لإيطاليا، وليست من طقوس الديانة المسيحية، كما أنها ليست من شعائر هذه الشريعة. ولذلك تحدد وضع الفاتيكان فى القانون الدولى بأنها دولة من نوع خاص (من القسس) ورئيس الكنيسة هو فى مرتبة رئيس الدولة وإن كان منح أسبقية على أقرانه فى عواصم الدول الكاثوليكية. كما أن السفراء لدى الفاتيكان يقدمون أوراق اعتمادهم إلى البابا موقعة فى بعض الدول من وزراء الخارجية.

علاقة الشرائع بالتقدم والتخلف:

أثار تقدم بعض الدول البحث فى منهج التقدم وأصلحه للدول الراغبة فى التقدم. ففى مصر، فى بداية القرن العشرين ظهرت أربعة مناهج، الأول يرى أن المنهج الغربى هو الطريق المضمون للتقدم، والثانى يرى أن المنهج الإسلامى يعيد لمصر مجدها الزاهر فى العصر الإسلامى، والثالث يرى أن الثورة الشيوعية هى الطريق إلى التقدم مثل الاتحاد السوفيتى، أما المنهج الرابع فيرى أن المنهج التقليدى الإصلاحى الذى تسير عليه مصر حينذاك هو الأنسب والمحقق للتقدم وهو ما بدأه محمد على وارتفعت به مصر إلى مرتبة حسدتها عليها اليابان فى أواخر العقد السادس من القرن التاسع عشر.

واليوم نرى اليابان والصين وأوروبا الغربية والولايات المتحدة نماذج متقدمة، ولحقت بها نسبيا بعض الدول الإسلامية مثل تركيا وماليزيا. فعزا البعض هذا التقدم إلي عدم التمسك بالدين وفسره آخرون بالديمقراطية رغم تقدم سنغافورة وكوريا الجنوبية من قبل بالدكتاتورية. فاليابان ليست مسيحية

ولااسلامية وتركيا دولة اسلامية فما علاقة الدين بالتقدم والتخلف؟. الاجابة انه لاعلاقة علي الاطلاق بنوع الدين بالتقدم والتخلف ولولا النماذج الماليزية والتركية الاسلامية لصحت المزاعم بان الاسلام دين التخلف والفساد الغريب ان الرئيس الامريكي اوباما اكتشف في خطاب الوداع في الاسبوع الاخير من مارس ان المشكلة ليست في المسلمين وانما المشكلة في الدين ونصوصه المقدسة التي أشار إلي ضرورة توفيقها مع القيم المعاصرة كما فعلت المسيحية.

obeikan.com